للعبرة والتاريخ

نهاية دجال

للأستاذ حسني كنعان

ظهر منذ سبعة عشر عاماً في غوطة دمشق ، إحدى جنان الدنيا ، رجل أمي يدعى « طه أبا الورد » تخرج في « الطريق » على بعض مشايخ الصوفية ، ثم جمع حوله فئة من القرويين الجهال وقطاع الطرق . فتزيا بزي العلماء وأخذ يمخرق عليهم وينشر عن نفسه الدعاوى المضللة في قرى الغوطة على يد طائفة من الأتباع الذين أذاعوا عنه الأخبار الملفقة كادعاء أنه هو النبي المنتظر في آخر الزمان الذي يظهر البشرية من أدرانها وأوشابها ، وأنه من الملهمين الذين يوحى إليهم ، وأنه يبرىء المرضى ويحيي الموتى ويطعم الجائعين ، فأصبح في قريته « عربين » مليكا غير متوج ، وشاد مسجداً في ضاحية القرية وجعل فيه « زاوية » له بين الخمائل الوارفة ومنحدرات السواقي والأنهار وبين الورود والرياحين ، ونصب فيها كعبة مزوقة يتوسطها صندوق من زجاج فيه حجر أسود . وجعل الطواف حولها يغني عن شد الرحال إلى الكعبة في مكة ، فجازت هذه الشعوذات على بعض القرويين السذج ولقيت عندهم سوقاً رائجة ، ونال صاحبنا بعد الأيام شهرة فائقة وصيتاً بعيداً تجاوز الغوطتين الشرقية والغربية إلى جبال القلمون ، وأقبل عليه الناس زرافات ووحداناً وقدموا إليه الهدايا والأموال ففني بعد فقر ، وأثرى بعد إملاق .

وعلم بأمره علماء دمشق فثارت ثائرتهم ، وذهبوا إليه في قريته يستطلعون طلعه ليقفوا على خبره ، ولكنه كان يتظاهر أمامهم بالورع والتقوى ، ويدعي أنه استطاع أن يجعل من اللصوص وقطاع الطرق قوماً متعبدين متنسكين بعد أن استتابهم وأصلحهم ولم يستطع أحد من الوافدين على هذا « المخلوق » أن يقف على جلية أمره .

وبدا لي أن أزوره في يوم جمعة . وكان رسولي إليه من أشد أتباعه تعصباً له ، وكان لا يألو جهداً في أن يحدثني — ونحن في طريقنا إليه — عن معجزاته وخوارقه ، ويحذرني من الظهور أمامه بمظهر غير لائق بمقامه الرفيع أو الشك في أعماق نفسي بصدق دعوته ونبوءته ، لأن الرجل يعرف خفايا القلوب وأسرار النفوس ، فإذا لقي أمامه إنساناً جاحداً أو كافراً مسخه قرداً أو ابن آوى ، ثم قال لي : أنت رجل « ابن حلال » حسب ما يبدو لي فافهم ما قلت لك . فأجبته ضاحكا : لا تخف ، فأنا لم أقصد صاحبك إلا من أجل أن أهتدي بهديه وأطهر نفسي مما علق بها من الرجس ، فبرقت أسارير صاحبي واطمأن إلى وطمع في رضا سيده عنه وتقريبه إليه . ولما بلغنا المكان الأقدس سمعنا أصوات المؤذنين تتجاوب بها المآذن ، وشهدنا زحاماً عظيما على بابه ، فشق لي صاحبي طريقاً للوصول إلى المصلى فدخلته ورأيت الناس مابين قائم وقاعد ومتوضىء ، ودنا وقت الخطبة ، فخرج على القوم شيخهم غائر العينين ، وتراكض القرويون إليه يقبلون يده فحسبته صاحبهم وهممت أن أفعل فعلهم لولا أنني سمعته يقول : استعدوا فنبيكم قادم ، فأدركت أنه أحد صحابته المقربين ، وما لبث الشيخ أن أقبل على مهل ، وروائح الند والكافور والطيب تضوع من أردانه ، فخر القوم سجداً وبكياً ، فرأيت عملا بوصية ديدباني أن أفعل فعلهم ، ولم أدر ما ذا كانوا يقولون في سجودهم غير أنني سمعت رجلا إلى جانبي يقول : « يا أبا الورد ، يا منير الظلمة في اللحود ، ويا منقذ الصحب في اليوم الموعود ، كن لنا شفيعاً للغفور الودود » ! وقد طال سجودهم ولم يرفعوا منه رؤوسهم إلا بعد دقائق عشر ، ولما نهضوا تقدم فوج الفسوة بأيم الأيدي الشريفة ، وتبعهن الرجال وأنا في مؤخرتهم ، ومذ وقع بصره علي وصافحت عيناه عيني حد جني بطرف موقر وأدرك بثاقب بصره أنني ما أتيت متجشما المصاعب إلا من أجل الوقوف على جلية أمره ، فتظاهر أمامي بالورع والسذاجة وأبدى لي الاحترام ورحب بي ، وصعد المنبر وأخذ يتدفق في خطابه تدفق السيل وأورد من الأحاديث العجيبة ما لم يسمع به إنسان ، ولو أن « سيبويه » سمعه لفضل الموت انتحاراً ..

وبكى المستمعون ما وسعهم البكاء ، وبدا لهم بثوبه الأبيض الناصع الحريري ، وعمامته الضخمة المكورة على رأسه والمنتهية بعذبة طويلة كأنه ملك من الملائكة .. واختتم خطبته ونزل إلى الصلاة وهم يتسابقون إلى التمسح به والسعيد منهم من حظي بلمس

طرف ردائه ، ووقف للصلاة وسبحته الطويلة تهتز على صدره ، ويبدو الكحل في عينيه خطوطاً سوداء براقة ، وما كاد يقرأ الفاتحة حتى اهتز القوم طرباً لبراعته بالتلحين والتطريب حتى كدت أحسب أنه يغني «المتابا» أو «اليجانا» ، وانبعثت من حناجرهم الفولاذية الصرخات المدوية ، وأخذوا يبكون في الصلاة ويجهشون في البكاء ويقفزون في الهواء قفزات بهلوانية ويقلدون أصوات الحيوانات فكنت لا أسمع إلا الثغاء والمواء والعواء والجئير والزئير والهدير . فقت في ساعدي وأسقط في يدي وهممت أن أنفلت من بين الصفوف هارباً ولكني خشيت سوء العاقبة ، وقضيت الصلاة بعد ساعة شعرت فيها أن الأرض قد دارت بي مما عراني من الإعياء والتعب ، فلقد كان يطيل ركوعه وسجوده ويتنطع ويتقعر في القراءة ، وتلمست طريقاً للخلاص متسللا من بين الصفوف دون أن يشعر بي أحد ناجياً بنفسي ، وفور وصولي إلى دمشق أذعت في الصحف نبأ ما سمعت وما رأيت محذراً أولي الأمر والرأي العام من خطر هذا الأفاك الأثيم ، فلم تلق صرخاتي آذاناً صاغية ولا قلوباً واعية لأن الحكومة الفرنسية كانت تشجعه وتشجع أمثاله وتلقي لهم الحبل على الغارب وبقي هذا الطاغية يعبث بعقول السذج البسطاء من اتباعه فيسلبهم العقل والمال والعرض منذ بدء العهد به حتى يومنا هذا . وقد مدالله ليتيح له فرصة التوبة ولكنه لم يتب برغم بلوغه الستين من العمر ، فأحذه أخذ عزيز مقتدر ، وألقى الرجل منذ أيام في غياهب السجن بين جدران حاشرة لا يرى فيها نور الشمس ، وها هو ذا اليوم يدان بفضيحة جديدة تثبت سطوه على أعراض النساء اللواتي كن يستسلمن له ، فضيحة جرت فضائح ، كان لها ريح خبيث ، ودوى مزعج ، وصور لا يستطيع أن يرسم أفحش منها إبليس نفسه

ولقد ثار العلماء وأعلنوا البراءة منه ومن أمثاله ، ونرجو أن يكون مصيره عبرة لكل ممخرق يريد أن يخدع الناس باسم الصوفية والدين ، فحسب هذه الشريعة البيضاء النقية ، ما أصابها من سواد ، وما مسها من عكر !

دمشق — عيسى كنعان

ظهر حديثاً :

الجـــزء الأول من

معجم مقاييس اللغـــة

لأبي الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥

وهو المعجم الوحيد الذي يطبق قاعدة الاشتقاق الكبير على جميع مواد اللغة ، في حسن عرض وجمال أســـلوب ، وبه يمكن استدراك كثير مما فات المعاجم المتداولة

قام بتحقيقه وضبطه

الأستاذ عبد السلام محمد هارون

المدرس بجامعة فاروق الأول

مع مقدمـــة تحقيقية في نحو ٥٠ صفحة تجلو حياة ابن فارس وأدبه وفقه ومجهوده التأليفي

في ٥٣٠ صفحة وثمنه ٦٠ قرشاً عدا البريد

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر — ت ٥٠٨٥٦ مصر